

## مستوى التعبير الإجلالي والاسترسالي وأثرهما في تعلم اللغة وتعليمها (قراءة في المستويين من خلال كتابات الحاج صالح)

### *Reverential and Fluid Levels of Expression , and their Impact on Learning and Teaching the Language (a Study on two Levels Through Hadj Salah Writings)*

د.غريبي بكاي  
أستاذ محاضر (أ) بالمركز الجامعي تيمسليت  
gharbimed917@gmail.com

#### ملخص

يعتبر الدكتور الحاج صالح من رواد الدرس اللساني الحديث، قرأ التراث اللغوي العربي واستوعبه جيدا، واطلع على علوم اللسان في الثقافة الغربية، وأفاد منها في نقد الواقع اللغوي في العالم العربي، كما دعا إلى تغيير مناهج التعليم عامة، وتعليم اللغة العربية على وجه الخصوص، لأنها لا تسير العصر ولا تتناسب وروح العربية التي كان الناطقون بها يستخدمون مستويين من التعبير، المستوى العضوي الاسترسالي، والمستوى الإجلالي الترتيلي، بينما تُدرّس اللغة العربية في جميع مراحل التعليم من الابتدائي إلى الجامعة بمستوى واحد، وهو المستوى الإجلالي، ومنه جاء موضوع بحثي هذا معنونا ب: التعبير ومستوياته عند الدكتور الحاج صالح.

**الكلمات الدالة:** مستويات التعبير، مستوى السائل التلقائي، المستوى التحفيزي، التعليم، التعليم، الاقتصاد اللغوي، الإغراق.

#### Abstract

The term discourse remains the subject of discussion and variation in the boundaries and parameters, especially in its procedural and conceptual overlap. With the emergence of the new wave of criticism, the critic conflict over the discourse has increased in the field of criticisms and monetary approaches from the field of philology, linguistics, and philosophy and pragmatic. Note that the direct lexical, linguistics definitions. That in the course of her compassion with the human sciences realized that the conceptual and procedural failure of the term discourse in all its critical and cognitive directions, which led to the difficulty in the capture of what it is and recognize the context. Especially when His concept moves from one direction to another and from one approach to another so. That the latter – the discourse – is the subject of intellectual review and an independent field for the production of knowledge. Therefore, this paper tries to monitor these perceptions and the ongoing developments in order to bring together the knowledge and critical practices about the bets of the speech and its prospects in the light of the intersection of the critical methods and the overlap of science.

**Key words:** Levels of expression, Fluid Spontaneous Level, Reverential Recitative level, Teaching, Teaching , Linguistic Economy, Glottal Stop, Diphthong.

## مقدمة

التعبير الخطب الرسمية كالخطبة السياسية أو الخطب الدينية أو الخطب التي يقدمها الصحفيون على أمواج الإذاعات أو على شاشات التلفزة، وكذلك محاضرات الأساتذة التي يلقونها على الطلبة أثناء التدريس، ويلحق بذلك المقالات العلمية والكتب والمؤلفات والرسائل العلمية، وينبغي لهذه الأنواع من الخطابات أن يتم تحضيرها جيداً ويقوم المتكلم باختيار الألفاظ والعبارات المعبرة عن المعنى المراد، وأن تتناسب والمقام الذي تُقال فيه، وفي هذا النوع من التعبير يظهر الإعراب جلياً ويتم فيه تحقيق الهمز، ويتعد المتحدّث عن مظاهر الاختزال والاختصار إلا إذا كان المقام يطلبها، وخير ما تمثل به لهذا المستوى مقتطف من مقال للشيخ البشير الإبراهيمي - رحمه الله - بعنوان: حالة المسلمين<sup>(5)</sup>.

وإذا كان الشاب يجلس إلى أبويه وذويه فلا يسمع إلا المذهب والخلاف، ولزم المخالفين بالمذهب قبل المخالفين بالدين، ثم يجلس إلى العالم الديني فلا يسمع إلا «عندنا وعندهم» ثم يجلس في المدرسة فلا يسمع ذكراً للإسلام، ولا تمجيداً لمبادئه وعظمائه وتاريخه، ولا يرى فيها شيئاً من مظهره بل لا يسمع إلا تحقيراً لماضيه وغضاً من أمجاده.

إذا كان لا يسمع في مضطربه إلا هذا، ولا يرى إلا هذا - فكيف نطمع أن ينتصر مع هذه الدعايات الجارفة؟ إننا حين نطمع في هذا لفي غيٍّ بعيد.

إن شبابنا؛ لجهلهم بالإسلام أصبحوا لا يثقون بماضيه؛ وكيف يثقون بماض مجهول وهذا حاضره؟ أم كيف يدافعون عن هذا الماضي المجهول إذا عرض لهم الطعن فيه في الكتاب الطاعن؟ أم سمعوا اللعن له من الأستاذ اللاعن؟ أم كيف يضحون بالمجهول إذا جليت المفاخر الأجنبية في كتاب يقرره قانون، ويزكيه أستاذ؟ اعذروا الشباب، ولا تبكوا على ضياعهم فأنتم الذين أضعتموهم، ولا تلوموهم ولوموا أنفسكم.

أهملتموهم فذوقوا وبال الإهمال، و أنزلتموهم إلى اللجّة، وقتلتم لهم إياكم أن تغرقوا، ثم استرعيتهم عليهم الذئاب ومن استرعى الذئب ظلم. لا أحق منّا: نلّص أبناءنا الخلاف في الدين والدنيا بأعمالنا، ونقول لهم بألسنتنا اتحدوا، وإنّ صالحاً يأخذها الابن عن أبيه بطريق القدوة خير من ألف نصيحة باللسان، النهضات الصادقة تبدأ من الأخلاق وتنتهي إلى الأخلاق.

تحدث الشيخ البشير الإبراهيمي في هذه المقالة عن واقع الشباب الجزائري وما يعانيه من أخطاء في التربية والتعليم من طرف الأولياء والمدرّسين، وكل فرد في المجتمع إلا ويغرس فيهم الأفكار الخاطئة من حيث يدري أو لا يدري، وبعد كل ذلك نطالبهم بأن يكونوا ناساً صالحين مصلحين مستقيمين في أفكارهم وسلوكاتهم معتزين بماضيتهم، واثقين من نفوسهم مترنين في شخصيتهم، لن يكون هذا أبداً ما دامت أعمالنا مخالفة لأقوالنا.

يرى الحاج صالح أنّ الواقع الذي كانت عليه اللغة العربية يختلف اختلافاً كبيراً عما هي عليه في زماننا، فقد كان فصحاء العرب في مخاطباتهم العادية يختزلون ويحذفون ويدغمون ويختلسون، وكانوا يُحَقِّقون ويُتَمَوْن في مقامات أخرى، وقد سمى الحاج صالح المستوى الأول بمستوى التعبير العفوي الاسترسال، والمستوى الثاني مستوى التعبير الإجلالي، وهنا يمكننا أن نتساءل ما هي خصائص ومميزات المستوى العفوي؟ ثم لماذا غاب المستوى الأول ولم يغيب الثاني؟ وحينما غاب المستوى الأول لماذا حلت العامية محله؟ وهل هناك علاقة بين العامية والفصحى؟ أم أنّ كل ما هو في العامية لا يمت بصلة للفصحى؟ وكيف يمكن استثمار آراء الحاج صالح في إصلاح العملية التعليمية؟

قبل الخوض في غمار البحث لا بد من التعريف ببعض مصطلحاته فالمستوى اللغوي: "من حيث المفهوم هو المجال الذي يهتم به اللساني بغاية الدراسة والوصف والتحليل"<sup>(1)</sup> ومستويات اللغة هي: المستوى الصوتي والمستوى الصرفي، والمستوى المعجمي، والمستوى النحوي "التركيبية"، وقد سمى الدكتور أحمد كشك هذه المستويات فروعا، وهي عنده خمسة: الأصوات والصرف والمعجم والنحو والدلالة"<sup>(2)</sup>.

**الإجلال لغة:** جاء في لسان العرب "جلل: الله الجليل ذو الجلال والإكرام، وجلال الله عظمتة... و جل الشيء يجل جلالاً و جلالته وهو جل و جليل و جلال: عظم... و أجله: عظمه، يقال: جل فلان في عيني أي: عظم"<sup>(3)</sup>.

**الإجلال اصطلاحاً:** بعد البحث في مجموعة لا بأس بها من المصادر والمراجع لم أجد له تعريفاً اصطلاحياً وبالاعتماد على ما جاء في حديث الحاج صالح عن هذين المستويين يمكن أن نفهم منه بأنه مستوى من التعبير يستخدمه المتكلم في ظروف وأوقات معينة تتطلب منه أن يختار ألفاظاً ومفردات مناسبة للمقام الذي هو فيه كالخطب الدينية أو السياسية أو النشرات الإخبارية، ويتعد عن اختصار الكلام أو حذف أجزاء منه حتى تصل رسالته إلى المتلقي على أحسن وجه ممكن.

**مفهوم التعبير الإجلالي عند الحاج صالح:** يسميه أيضاً الترتيلي والانقباضي، وتقتضيه حرمة المقام وفيه تظهر عناية المتكلم الشديدة بما ينطق به من حروف وما يختاره من ألفاظ وتراكيب حتى يبلغ به فرط التصحيح إلى اللحن الجلي - وليس بالجلي الآن بل خفي على أكثر الناس - كإظهاره ومدّه لحركات الإعراب في مواضع الوقف، وكفّه لما يجب إدغامه وغير ذلك، ويستعمل الناس هذا المستوى من التعبير في جميع الحالات التي تتصف بالحرمة كخطاب الخطيب وخطاب المذيع للناس في الإذاعة والتلفزة ومحاضرات الأساتذة"<sup>(4)</sup>.

ومن النماذج التي قدّمها الحاج صالح حول هذا المستوى من

تداوله.

التمائل:

يُعد التماثل نوعاً من أنواع الإدغام وهو "أن يتفق الحرفان مخرجا وصفة كالباء في الباء، والتاء في التاء وسائر التماثلين"<sup>(11)</sup>، فمتى تشابه حرفان تشابها تاما في المخارج والصفات نقول عنهما قد تماثلا ويعني كذلك: "تأثر المتجاورة بعضها ببعض تأثرا يؤدي إلى التقارب في الصفة أو المخرج تحقيقاً للانسجام الصوتي، وتيسيراً لعملية النطق، واقتصاداً في الجهد العضلي"<sup>(12)</sup>.

ولكي يحدث الانسجام الصوتي أثناء عملية الكلام لا بد أن تتسق الحروف وتنسجم مع بعضها البعض سواء أكانت في الكلمة أو في الجملة، وإذا تجاوز حرفان متقاربان في المخرج مثل العين و الحاء وجب تغيير أحدهما ليسهل على اللسان النطق بها لأنه "من العسير على اللسان أن ينطق بصوتين متجاورين وهما من طبيعتين مختلفتين لما في ذلك من جهد على أعضاء النطق"<sup>(13)</sup>.

وقد أطلق كريم حسان الدين على ذلك مصطلح "التحييد" وقال عنه "هو تداخل أو ذوبان فونيم في فونيم آخر حتى يصير فونيمياً واحداً في سياق صوتي معين، أو بعبارة أخرى: إلغاء أو محو لفونيم معين نتيجة لتفاعله مع فونيم آخر يختلف معه في ملمح صوتي واحد على الأقل، ويكون الفونيم الجديد الناتج عن عملية التحييد صورة جديدة أو وسطاً بين الفونيمين المحول عنه والمحول إليه نتيجة عملية المماثلة"<sup>(14)</sup>.

وهذا المصطلح وُجد في العربية فقد ذكره سيبويه وأطلق عليه مصطلح "المضارعة" حيث وضع في الكتاب باباً سماه "باب الحرف الذي يضارع بها حرفاً من موضعه والحرف الذي يضارع به الحرف وليس من موضعه"<sup>(15)</sup>.

ومن الأمثلة التي يتماثل فيها حرفان كلمة "أذكر" التي تتأثر فيها التاء بالذال بعدها فتصبح ذالاً والأصل فيها "اذتكر" ولما تأثرت التاء المهموسة بالذال المجهورة بعدها تحولت إلى ذال فأصبحت أذكر مثل قوله تعالى: ﴿وَأذْكَرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾<sup>(16)</sup>، وهو مُذَكَّرٌ.

قال سيبويه "وَمَنْ قَالَ مُطْعَنٌ قَالَ مُذَكَّرٌ وَقَدْ سَمِعْنَاهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ"<sup>(17)</sup> أي سمع العرب الفصحاء ينطقون بذلك، وقال ابن جني "قَالَ بَعْضُهُمْ فِي أَذْكَرِ أَذْكَرٌ"<sup>(18)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَّا السُّرَانَ لِلذَّكَرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾<sup>(19)</sup>.

أما الحذف فهو "إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل"<sup>3</sup>. ويتم الحذف من الكلام بسبب كثرة الاستعمال أو طول الكلام أو غيرها من العلل، ومن أمثلته حذف حرف أو كلمة أو جملة أو جمل من الكلام حال التأكد من أن المحذوف معلوم لدى السامع مثل: قالوا في (أي شيء) (أيش) لكثرة الاستعمال<sup>4</sup>، وأهلاً وسهلاً. وقد ذكر سيبويه أمثلة كثيرة عن الحذف بكل أنواعه منها قوله: "إذا رأيت رجلاً متوجهاً وجهة الحاج، قاصداً في هيئة الحاج، فقلت: مكته ورب الكعبة... كأنك قلت: يريد

والشيخ الإبراهيمي -رحمه الله- في هذه المقالة شخّص وشرّح الواقع التربوي والتعليمي في الجزائر تشخيص الخبير العارف بالواقع الحياتي للشباب وللأمة، وبين الداء ووصف الدواء المناسب للعلل والأمراض التي أصابت هذه الأمة.

مفهوم التعبير الاسترسالي ومميزاته عند الحاج صالح:

**الاسترسال لغة:** جاء في مختار الصحاح "استرسل الشَّعْرُ صار سَبْطاً، واسترسلَ إليه انبسط واستأنس"<sup>(6)</sup>

وقال ابن منظور في لسان العرب: "ترسّل الرجل في كلامه ومشيه إذا لم يعجل... واسترسل الشيء سلس... واسترسل إليه أي: انبسط واستأنس، وفي الحديث "أيا مسلم استرسل إلى مسلم فغبه فهو كذا"، والاسترسال الاستئناس والطمأنينة إلى الإنسان والنقته به فيما يحدثه، وأصله السكون والثبات... والترسّل في الكلام التوقر والتفهّم والترفق من غير أن يرفع صوته شديداً"<sup>(7)</sup>.

**الاسترسال اصطلاحاً:** بالاعتماد على التعريف اللغوي يمكن أن نقول إنه مستوى من التعبير يوظفه المتحدث في الحالات التي يشعر فيها بالاستئناس والطمأنينة إلى من يخاطبه كحديث الأصدقاء مع بعضهم البعض أو الأب مع أبنائه أو الجار مع جاره، وحديث المتسامرين أو المتفرجين وغيرهم.

**مفهوم الاسترسال عند الحاج صالح:** يرى الحاج صالح أن هذا المستوى في التعبير يتم توظيفه في التعبير عن الحاجات اليومية داخل المنازل، وفي وقت الاسترخاء والعفوية، وتقتضيه مواضع الأُنس كخطاب الزوجة والأبناء في المنزل والأصدقاء أو شخص آخر في غير مقام الحرمة... وقد وُجد بالفعل في المخاطبات بين فصحاء العرب في الزمان الذي كانت تُكتسب الملكة بالسليقة أي بدون تلقين معلم... وقد اعتنى العلماء القدامى الذين شافوها فصحاء العرب بوصفه الوصف العلمي"<sup>(8)</sup>.

ومن مميزات هذا المستوى أنه يراعي ما يتطلبه مقام الأُنس من إدغام وحذف واقتصاد وتخفيف الهمزة واختلاس للحروف وقلب وإبدال وغيرها، ولتوضيح هذه المميزات أكثر سأقوم بتقديم تعاريف موجزة لكل من الإدغام والحذف والاقتصاد اللغوي... وأقدم أمثلة توضيحية حولها.

**الإدغام** هو "وصلك حرفاً ساكناً بحرف مثله من موضعه من غير فاصل بينهما بحركة ولا وقف فتصيرهما بالتداخل كحرف واحد ترفع لسانك بهما رفعة واحدة، وتشدده وهو مقدر بحرفين الأول منهما ساكن، والعلّة فيه هو أن الحرفين إذا كانا مخرجهما واحداً يثقل على اللسان أن يرفعه ثم يعيده في الحال إلى موضعه، وهو شبيه بمشي المقيد لأنه كان لا يزال موضعه"<sup>1</sup>. مثل: أَخَذْتُمْ = أَخْتُمْ، بَلْ رَفَعَهُ = بَرَفَعَهُ، من بعد = ممّبع، يتصدق = يصدّق.

ومن الأمثلة التي جاء بها الحاج صالح في الإدغام بدون قلب قول العرب: المال لك = المالك، أخشى ياسراً = أخشياً سراً<sup>2</sup>. ويكثر هذا في لغة التخاطب اليومي نظراً لخفته على اللسان ويسر

مكتة والله... أو رأيت رجلا يسدد سهمًا قبل القرطاس فقلت: القرطاس والله؛ أي: يُصيب القرطاس... وقولهم: كل شيء ولا شتيمته حُر؛ أي: أتت كل شيء ولا ترتكب شتيمته حُر، فحذف لكثرة استعمالهم إياه...<sup>5</sup>

والألفاظ إذا كثر ترددها ودوراتها على الألسن تجنح نحو الاختصار فتحذف بعض أجزائها لأن المتحدث العادي يريد التحدث بسرعة حتى لا يتوقف بين العبارات طويلاً، فينقطع حبل الاتصال بينه وبين السامع من جهة، وحتى لا يدع مجالاً لمقاطعته من جهة ثانية، ويوفر جهداً يستخدمه في التعبير عن أفكار جديدة<sup>6</sup>.

ويرى الدكتور رمضان عبد التواب أن كثرة الاستعمال تُبلي الألفاظ وتجعلها عرضةً لحذف بعض أجزائها كما تُبلي الأوراق النقدية... والكلمات القصيرة غالباً ما تقاوم البلى والحذف ومثال ذلك: للساعة بمعنى الآن لكثرة تداولها على الألسنة ينطقها المصريون (لسه)، وفي الجزائر يقولون: (للساع)، وكذلك قولنا في الإجابة (إيوه) فهي مختصرة من (إي والله)<sup>7</sup>.

وقد تحذف الكلمة ولا يبقى منها إلا حرفاً مثل: كلمة (شيء) نسمعها في لغة التداول اليومي (ما شفتش)؛ أي: ما شفت شيئاً، وشاف في لسان العرب لها عدة معاني منها معنى (نظر) قال ابن منظور: شاف الشيء شوفاً جلاًه، والشوف الجلو، والمشوف: المجلو قال عنتر: وقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم؛ يعني بذلك دينار شافه صاحبه، أي: جلاًه، وقيل: عنى به قدحاً صافياً، والمشوف من الإبل المطلي بالقطران... واشتاف فلان يشتاف اشتيافاً إذا تطاول ونظر، وتشوفت إلى الشيء أي: تطلعت، ورأيت نساء يتشوفن من السطوح أي ينظرن ويتطاولن... وشيفت القوم: طليعتهم الذي يشتاف لهم، وعن ابن الأعرابي: بعث القوم شيفتة أي: طليعة، واشتاف الفرس والطبي وتشوف نصب عنقه وجعل ينظر...<sup>8</sup>

ومما هو مختصر في كلام العرب كلمة (إمّا لا) وهي اختصار لعبارة: (افعل هذا إمّا لا) وهي في أصلها: افعل هذا إن كنت لا تفعل غيره<sup>9</sup>، ولا تزال إلى يومنا هذا في الجزائر ويختلف الناس في النطق بها، فمنهم من يقول: إمّا لا، ومنهم من ينطقها (هَمّا لا).

وفي بعض الأحيان يتم حذف صوت من كلمة وإضافته إلى كلمة مجاورة لها، وإن كان هذا الفعل خطأً -على حسب رأي ستيفن أولمان\* - إلا أنه موجود ومتداول في الحديث اليومي بين الناس، ومثال ذلك: "فلان جاء بكذا، لكثرة استعمالها حُذفت الهمزة من الفعل جاء وأقترنت الباء الجارة من الاسم الذي بعدها وألحقت بالفعل الذي قبلها، فصرنا ننطقها: فلان جاب سيارة"<sup>10</sup>.

وكثيراً ما تجتمع في اللفظ الواحد أصوات بينها تنافر صوتي يثقل على جهاز التصويت تداوله بدقة ووفاء، "فيتناوله

بضروب من التعديل والتبديل، ليقرب بعضه من بعض ويقيم بينهما قناة مشتركة تسهل الجريان الصوتي، إنها نزعة العناصر المتنافرة لشدة التباعد أو التماثل، إلى التقارب الذي يزيل التعثر، ومن أمثلة ذلك: ازدهر ويزدحم وازدياد، الأصل فيه أن تكون التاء بعد الزاي، غير أن الزاي مجهورة رخوة، والتاء مهموسة شديدة، وبينهما تنافر من جهتين فغلبت صفة الجهر على الهمس، وأبدل التاء حرف مجهور شديد هو الدال فأصبح بين الحرفين ضرب من التقارب يزيل العسر العلاجي ويسر الأداء<sup>11</sup>.

ومن النماذج التي قدّمها الحاج صالح -رحمه الله- عن لغة الخطاب العفوي ما نقله عن سبويه عن العرب الفصحاء أنهم كانوا يجعلون مكان الصاد زايًا خالصةً، فيقولون: "في (مصدر/ واصر، مزدر/ واذر، ويقولون في: (التسدير: التزدير، ويسدل ثوبه يزدل ثوبه) 29، فهم يجعلون الصاد المهموسة مجهورة لمجاورتها الدال حتى يسهل عليهم النطق بها، ومازلنا نقوم بذلك بدون شعور حتى في القرآن الكريم وتقلب الصاد زايًا كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُضْمَرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ الزلزلة: 06.

فالصاد صوت مهموس يفقد صفة الهمس ويمائل الصوت المجهور الذي يليه فيصبح المهموس مجهوراً.

ويرى الدكتور سمير استيتية أن هذه العملية من الناحية النطقية ليست توافقا بين صوتين فحسب، بل هي أكثر من ذلك بكثير، فهي مرتبطة بميكانيكية النطق فالوتران الصوتيان في حال نطق الأصوات المهموسة يبتعد أحدهما عن الآخر حتى تكون المسافة بينهما كافية لمرور الهواء بحرية وطلاقة فلا يتذبذب الوتران الصوتيان، وتتراوح سرعة الهواء ما بين 200 إلى 300 سم/ث.

أما في حال نطق الأصوات المجهورة فالوتران الصوتيان يقترب أحدهما من الآخر حتى تكون المسافة بينهما غير كافية لمرور الهواء بحرية وطلاقة، فيضرقهما الهواء ثم يقتربان ثم يبتعدان، وتكون سرعة الهواء ما بين 200 إلى 700 سم/ث.

ومعنى ذلك أن تغير نطق الصاد ليصبح مجهوراً عند مجاورته الدال في "يصدر" كان بسبب السرعة في عمل الوترين الصوتيين، وبسبب ديناميكية الهواء في الوضعين المختلفين اللذين يتخذهما الوتران الصوتيان جهراً وهمساً<sup>(30)</sup>.

وقد قام سمير شريف استيتية بقياس الترددات لنطق كلمة "يصدر" بهمس الصاد ثم بجهرها، أي بجعلها زايًا مُفخمة مستخدماً في ذلك الراسم الطيفي المحوسب، فتبين له أن نطقها مجهورة يُخفف من تردداتها، ومن بين النتائج المتوصل إليها في ذلك ما يلي<sup>(31)</sup>:

1- عند نطق الصاد مهموسة (أي بنطقها على الأصل في "يصدر" بلغت ترددات الصوت في المستوى الترددي الأول 22 هرتز، أما عند نطقها زايًا مُفخمة فقد بلغت تردداتها في المستوى الترددي الأول 2.4 هرتز أي بفارق 18 هرتز، أي أن ترددات الصاد تقل

في المستوى الترددي الأول عند نطقها مجهورة.

2- بلغ أعلى تردد للصاد مهموسة في "صدر" 487 هرتز، وبلغ أعلى تردد عند نطقها زائياً مضخمة 428 هرتز ببارق مقداره 59 هرتز، وهذا يعني أن أعلى تردد للصاد في "صدر" يقل عند نطقها مجهورة.

ومن أمثلة التقريب والإبدال: العنبر= العمبر، اصحب مطرا= اصخْمَطْرا، انقذ طابا= انقطابا، انعت طابا= انعطابا، خذ ثابتا= خثابتا، ذهب سلمى وقد سمعت كان ينطق بها العرب في مقام أنس: ذهب سلمى وقسمعت، ومزمان أي منذ زمان يدغمون الذال في الزاي ومساعة أي منذ ساعة، يدغمون الذال في السين<sup>12</sup>. وفي هذه الأمثلة: "اصخْمَطْرا" تم إدغام الباء في الميم لأنهما متجانسين الأول ساكن والثاني متحرك، وكذلك في "انعطابا" وفي "خثابتا" وفي "انقطابا" تم إدغام الذال في الطاء لأنهما متقاربين، وكذلك في "ذهب سلمى"، وهذا الإدغام له أثر كبير في تخفيف النطق وتسهيله، وهو نوع من الاقتصاد اللغوي.

أما الاقتصاد في اللغة فهو من "القصد في الشيء خلاف الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتقتير، والقصد في المعيشة ألا يسرف ولا يقتصر"<sup>13</sup>.

مفهوم الاقتصاد اللغوي في الاصطلاح: مبدأ الاقتصاد " هو في الحقيقة تطبيق لقانون الجهد الأقل، فني تطور واستعمال اللغة بحث دائم في التوازن بين الاحتياجات الشرطية والاحتياجات التواصلية من جهة، والتذكر الذهني والجهد العضلي من جهة أخرى"<sup>(32)</sup>.

وقال الحاج صالح: "نعني بالاقتصاد ما كان يعنيه علماء العرب قديما من كلمة الاستخفاف، وهي عبارة عن نزعة المتكلم الطبيعية إلى التقليل من المجهود العضلي أو الذاكري عند إحداثه لعباراته في حالة الاستئناس وعدم الانقباض، فكما كان المقام مقام أنس كان المتكلم إلى حذف ما هو غني عنه لإبلاغ مراده أميل وأكثر ارتياحا، وهو بالذات ما يمنح للغة حيويتها"<sup>14</sup>.

ولكي يتحقق الاقتصاد في اللغة ينبغي أن يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال لا زائدا عنه فيكون إسرافا، ولا ناقصا عنه فيحدث إخلالا بالمعنى المراد توصيله، قال الحاج صالح: "ويكون الخطاب الموجه إليه (إلى المتلقي) واضحا، ويحصل التوازن حين يكون مردود الكلام مساويا للمجهود الفيزيولوجي المبذول لتحقيقه"<sup>15</sup>.

وقد اهتم علماء اللسانيات في هذا العصر بالاقتصاد اللغوي لما فيه من فائدة على المرسل والمرسل إليه، وفيه "يخضع سلوك الإنسان إلى قانون أضعف الجهد الذي لا يجهد الإنسان وفقه إلا بالقدر الذي يمكن أن يبلغ فيه الأهداف التي ارتسمها لنفسه"<sup>16</sup>. وهو يشمل كل مظاهر الاستخفاف من إدغام وتخفيف للهمزة أو حذفها واختزال واختصار للكلام،

واختلاس للحروف والحركات و إبدال وغيرها، وقد اعترف بهذا كبار رواة اللغة وعلمائها، يشهد على ذلك ما نقله الحاج صالح عن أبي العيناء\* أنه قال: "ما رأيت مثل الأصمعي قط أنشد بيتا من الشعر فاختلست الإعراب. ثم قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: كلام العرب الدرَج... وسمعت يونس بن حبيب يقول: العرب تشام الإعراب ولا تحققة، وسمعت الخشخاش بن الحبحاب يقول: إعراب العرب الخطف والحذف"<sup>17</sup>.

الهمز في اللغة هو "الدفع بسرعة، تقول همزت الفرس همزا إذا دفعته بسرعة، وسُمي الحرف المعروف همزة لأن الصوت يُدفع عند النطق به لكلفته على اللسان والنبر مرادف للهمز عند الجمهور"<sup>18</sup>، وقد اختلف العرب في نطق الهمزة بين التحقيق والتخفيف والبدل، والسبب في تخفيفه أو إبداله هو أن الهمز في النطق فيه كلفة ومشقة لكونه حرفا قويا بعيد المخرج، قال سيبويه: "الهمزة فعل بها هذا من لم يُخفها لأنه بُعد مخرجها، ولأنها نبرة في الصدر تُخرج باجتهاد وهي أبعد الحروف مخرجا، فثقل عليهم ذلك، لأنه كالتهوع"<sup>19</sup>.

ويحدث هذا في الكلام العادي أو في القراءات القرآنية، "إذا اجتمعت همزتان مفتوحتان في كلمتين متجاورتين فقالون يسقط أولهما، أي يحذفها بالكلمة ويحقق الثانية مثل قوله تعالى: (جَاءَ أَمْرُنَا) و(جَاءَ أَجْلُهُمْ) و(إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) والأكثر على هذا (أي حذف الأولى)، فتكون في قراءته "جا أمرنا" وهكذا مع البقية وقال بعضهم بحذف الثانية، وورش يحقق الأولى ويسهل الثانية"<sup>20</sup>. قال سيبويه: "فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فُتحَقَقًا"<sup>21</sup>.

وقد شاع في لغة التخاطب والتداول اليومي إبدال الهمزة أو حذفها سواء أكانت في وسط الكلمة أم في آخرها، لأن المتكلم يريد التخفيف على نفسه، فبييتعد عن كل ما فيه مشقة أو كلفة على لسانه، ومن ذلك قولهم: جا من جاء، المرأ/ المرأة، أسأل/ سال، الصحراء، السما، الهوا الماء، النساء، الدفا، لرض من الأرض، لكثاف من الأكتاف، اقرا من اقرأ، الدعا من الدعاء... وغيرها، قال سيبويه: "إذا كانت الهمزة ساكنة وما قبلها فتحت فأردت أن تخفف أبدلت مكانها ألفا، وذلك قولك: في (رأس، وبأس، وقرأت): (راس، وباس، وقرات)"<sup>22</sup>، وهذا متداول بين الناس في أحاديثهم اليومية، وكثير منا يظن أنه ليس فصيحا، ولا يسمح للمتعلمين في المدارس نطق هذه الكلمات بدون همز لاعتقاد المعلمين أن تحقيق الهمز هو الفصحح الصحيح، قال سيبويه: "اعلم أن كل همزة متحركة كان قبلها حرف ساكن فأردت أن تُخفّف حذفها وألقيت حركتها على الساكن الذي قبلها؛ وذلك قولك: (مَنْ بوك) و(مَنْ مُك) و(كم بلك) إذا أردت أن تخفف الهمزة في (الأب، والأم، والإبل)... ومثله قولك في: (المرأة، المرة)"<sup>23</sup>.

وقد عاب الحاج صالح على المعلمين الذين لا يعرفون هذا الوجه في الهمز وهو التخفيف والإبدال فقال: وكم من معلم يُخطئ التلميذ الذي ينطق بهذه الكلمات بدون همزة مثل يومنون

قيل: يستعمل في العامية الفعل (قيل) المبني للمجهول بمعنى (ظن) يقال: وقبلا فلان جا وقبلا صرا كذا، أي: أظن، قال سيبويه ج 1، ص 180: "وزعم أبو الخطاب -وسألته عنه غير مرة- أن ناسا من العرب يوثق بعربيتهم، وهم بنو سليم يجعلون باب قلت أجمع مثل ظننت، قال الكمي:

أجها لا تقول بني لؤي لعمر أبيك أم متجاهلين؛ حيث نصب الشاعر مفعولين بد (تقول) التي أعمالها عمل (تظن)، والمفعول الأول هو (بني) والمفعول الثاني (جها لا).

ونظرا لرسوخ فكرة أن العربية لا يوجد فيها مثل هذه الظواهر التي ذكرنا ضاقت دائرة الفصحى، ولم يبق لها إلا مستوى واحد مستعملا في التعليم والخطب الدينية والسياسية، وفُسح المجال للعامية واللغات الأجنبية لتصبح لغة التخاطب في شتى مناحي الحياة، بل وأصبحت تزاحم الفصحى في عقر دارها، حتى أنك لا تستطيع أن تتفاهم مع بعض أفراد المجتمع إلا بالعامية أو توظيف كلمات فرنسية، مثل: كلمة هاتف لا يعرفها كثير من الشيوخ إلا إذا قلت: التيلفون، وإذا أمعنا النظر جيدا نجد أن هناك من يعتقد أن هذا المزيج من العامية بمصطلحات أجنبية هو العربية.

أسباب إخراج ما هو مستعمل في العامية من دائرة الفصحى:

أرجع الحاج صالح ذلك إلى الأسباب التالية:

1- النحاة المتأخرين الذين منعوا الكثير من العبارات وذلك مثل ما قاله ابن هشام من امتناع دخول (قد) على فعل منفي، ولم يوفق في ذلك لا من حيث السماع ولا من حيث القياس، أما السماع فقد ورد في الشعر أما القياس فقد توهم ابن هشام أن (قد) التي تدخل على المضارع هي التي تدخل على الماضي، وليست مثلها إذ الأولى هي بمعنى ربما، أما الثانية فلا يجوز أن يفصل بينها وبين الفعل الماضي لأنها من لوازمه، وهي بمنزلة أدوات النفي وتقابلها لما الجازمة، ولهذا لا يجوز الفصل بين ما والفعل المجزوم.

2- جهل المعلمين بالثروة اللغوية التي تلقاها العلماء الأولون من أفواه العرب زمان الفصحى العفوية لوجودهم إياها أحيانا كثيرة في اللهجات العامية الحديثة، وهذا ما جعل الفصحى تقتصر على الخطاب الأدبي ولا تخرج إلى ميدان الحياة و المشافهة اليومية، وقد رسخ في أذهان المعلمين أيضا أن اللغة العربية ليس لها إلا كيفية واحدة في التعبير، وهو المستوى الإجلالي أو الترتيلي، وسبب ذلك يرجع إلى أقدم العصور حيث أصبح هم المعلم هو الإعراب والنطق الصحيح ببنية الكلمة، وأهملوا المستوى العفوي، وهو ما أجازته العرب من تسهيل للهمزة، وإدغام الكثير من الحروف بين كلمتين و.... وتجاهل الناس هذا المستوى المستخف من التعبير العفوي لشدة غيرتهم على الصحة اللغوية حتى أدهم ذلك إلى اللحن، وهذا وهم عمّ المشرق والمغرب منذ زمان بعيد، ويرى الحاج صالح أنه لو أدخلت في مناهج المدارس العليا للمعلمين دراسة الأداء العربي كما

يومن، ياخذ، ذيب، بير... وقد قال سيبويه: "إذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها ضمة أو كسرة فإنك تُصيرها بين بين، وذلك قولك: هذا درهمُ أختك، ومن عند أمك وهو قول العرب وقول الخليل.<sup>24</sup>

هل كل ما هو عامي ليس فصيحاً؟

العامية نقصد بها تلك اللغة المحكية المستعملة في الحياة اليومية، وهي أكثر تداولاً من الفصحى قال مصطفى صادق الرافعي: "اللغة العامية هي اللغة التي خلفت الفصحى في المنطق الفطري، وكان منشؤها من اضطراب الألسنة وخبالتها وانتقاض عادة الفصاحة، ثم صارت بالتصرف إلى ما تصير إليه اللغات المستقلة بتكوينها وصفاتها المقومة لها، وعادت لغة في اللحن بعد أن كانت لحناً في اللغة"<sup>(33)</sup> أي: صارت لغة مخالفة للفصحى لما فيها من لحن وخطأ بعد أن كانت صنفاً ونوعاً جزءاً من اللغة.

ويعتقد الكثير من الناس -ومنهم من ينتسبون إلى حقل التربية والتعليم- أن ما هو موجود في العامية لا صلة له بالفصحى، والحقيقة غير ذلك؛ فقد صرح الحاج صالح أن 80% من ألفاظ التخاطب اليومي هي فصيحة أو قريبة جداً من الفصيحة، ومن أمثلة ذلك الفعل (خبر)؛ يُقال في العامية مثلاً: خبرني منين جيت، ولو ذكر تلميذ لمعلمه هذه العبارة لرددها عليه وخطأه، وطلب منه أن يقول: أخبرني من أين جئت، وقد قال ابن قتيبة في أدب الكاتب في باب (فعلت وموضعها): تأتي فعلت بمعنى أفعلت، كقولك: خبرت وأخبرت، وسميت وأسميت...<sup>25</sup>، واستخبر في الفصحى طلب الخبر مثل استغفر طلب المغفرة، يُقال في العامية (فلان راح يستخبر)؛ وهذه العبارة غير مقبولة في مدارسنا خاصة عند من لا يعرف أن صيغة (استفعل) من بين دلالاتها أنها تفيد الطلب.

وكذلك قولنا في العامية (الماكلة شاطت) أي نضجت حتى احترقت، قال ابن قتيبة: "يقال غضب واستشاط، أي احتد، وهو من شاط يشيط إذا احترق...<sup>26</sup>، كما تستخدم هذه الكلمة في التعبير عن الإنسان الذي يرهق نفسه كثيراً في العمل وطلب الرزق، فيقال عنه: (هناك شايط) وكأنه يحترق من التعب، الموس: في العامية وهي في الفصحى الموسى قال ابن قتيبة قال الكسائي: هي فعلى، وقال غيره هو مفاعل، من أوسيت رأسه؛ أي حلقته...<sup>27</sup>، وفي مدارسنا لا يقولون إلا السكين.

الصدر: يعني البرد القارص الشديد، قال الشيخ طاهر صالح الجزائري: "صدر بمعنى البرد معرب من سرد، فأبدلت فيه السين صاداً... وفي الصحاح صدر الرجل بالكسر يصدردُ صرداً فهو مصراد يجد البرد سريعاً"<sup>28</sup>.

ومن أمثلة ذلك استعمال لفظ الحش: وهو أخذ الحشيش من الأرض، يقال: هو يحش حشاً، الجفنت: جفنت الطعام التي يؤكل منها<sup>29</sup>، وقال حسان بن ثابت:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُ يُلْمَعْنَ فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةِ دَمَا

وتداولاً ، قال ابن جني في باب : اختلاف اللغات وكلها حجة: "ليس لك أن تردّ إحدى اللغتين بصاحبها لأنها ليست بذلك أحق من رسلتها، لكن غاية ما لك في ذلك أن تتخير إحداهما... هذا حكم اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدائبتين متراسلتين، فأما أن تقلّ إحداهما جداً وتكثر الأخرى جداً فإنك تأخذ بأوسعهما رواية وأقواهما قياساً، ألا تراك لا تقول: مررتُ بك، ولا المالُ لك قياساً على قول قضاة: المالُ له، ومررتُ به... وعلى هذا فيجب أن يقل استعمالها، وأن يتخير ما هو أقوى وأشيع منها، إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب، لكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتين"<sup>32</sup>.

وقد نبّه الحاج صالح إلى أنّ فكرة ربط الفصح بوجوده في قواميس اللغة قد شاع بين العامة والخاصة واعتقدوا أنّ ما تم تدوينه في القواميس هو الفصح، وما لم يأت فيها فهو غير فصيح، فقال: "إنّ عدم ثبوت الشيء في القواميس التي وصلتنا لا يعني أنه غير فصيح، إذ هناك آلاف من النصوص تتضمن العشرات من الألفاظ والمئات من الصيغ ممّا يأت به قاموس واحد، وقد عرفنا ذلك بإحصاء العدد الكبير من الدواوين الشعرية القديمة (من العصر الجاهلي إلى صدر الإسلام)"<sup>33</sup>.

أثر المستوى الاسترسالي في تعلم اللغة العربية وتعليمها :

يفتح هذا المستوى حظوظاً كبيرة أمام تعلم اللغة وتعليمها كونه يتميز بالخفة واليسر فهو يتناسب مع الطبيعة البشرية التي تأبى الصعوبة والتكلف، و تميل إلى السهل واليسير في كل شيء ، حيث يرى كل من "زيف ومارتيني" \* أنّ كلّ سلوك صحيح للفرد يحكمه مبدأ الجهد الأقل بسبب ميل الطبيعة البشرية إلى الكسل والبالادة"<sup>(44)</sup>. وعلى هذا فالألفاظ والمفردات والتراكيب -خاصة التي يكثر استعمالها ينبغي أن تخضع لعمليات تجميلية تسهّل من استعمالها وتداولها، وتجعلها أكثر مرونة، وهذه العمليات التجميلية تتمثل في الحذف، وتخفيف الهمز، واختلاس الحركات وغيرها، وهذا ما يسميه "زيف بالتطور التكييفي .

### التطور التكييفي

يرى فلوريان كولاس أنّ التطور التكييفي هو مصطلح استعمله "زيف"، ويعني به "تكييف وتطوير وتحسين أدائية الوسائل بحيث تنسجم مع الأهداف المتوخاة، وذلك بتسهيل الوصول إليها (الأهداف) بطريقة تقلل الجهد اللازم للتعامل معها"<sup>(45)</sup>.

ولتوضيح هذا المبدأ الفعّال في العملية التواصلية، والذي يمثل مظهراً من مظاهر الجهد الأقل يشير "زيف" إلى المثال المحسوس للأدوات على طاولة النجار، فاعمل بالأدوات لا يتطلب استعمالها فقط، بل صيانتها أيضاً، والتعديل فيها بالنسبة لكل نجار معين وبالنسبة للنجارة كحرفة، ومبدأ الجهد الأقل ستكون له نتيجة مؤداها: أ- أن الأداة الأكثر استعمالاً هي من ستكون عرضة للتغييرات، والتعديلات أكثر في شكلها العام

وصفه علماءنا الذين شافهوا فصحاء العرب ودوّنوا مباشرة مخاطباتهم، ولو اهتم بالقراءات القرآنية في تبيين وتوضيح كيفية الأداء اللغوي لكان من الممكن تلافياً ذلك ، ولما وقعنا فيما نحن فيه"<sup>30</sup>.

3- عدم فهم الكثير من المثقفين لكلام الفطاحل من علماء العربية الأولين أمثال الخليل وسيبويه وابن جني، ومن يقرأ في كتاب سيبويه هذه العبارات (هذه لغة جيدة) وهذه (لغة قبيحة) أو (هذا حسن) وذاك (قبيح)، يعتقد أنّ مؤلف الكتاب يحكم على هذه اللغات (الوجوه المختلفة من الأداء) - كما قلنا- من تلقاء نفسه وحسب ما يكون قد رسمه لنفسه أو رسمه شيوخه من معايير (الذوق السليم) وهذه أفحش غلطة يرتكبها هؤلاء، وقد تصفحنا ما في الكتاب من السياقات التي ترد فيها هذه الأحكام وتبين لنا أنّ المرجح فيها هو دائماً استعمال الشائع المشهور للفصحاء أنفسهم، وما ارتضاه أكثرهم، أما ما افرد به نفر قليل أو بعض الأفراد وخالفوا فيه الأكثرية الساحقة خصوصاً إذا خالف القياس والسمع معا فهذا القبيح عنده.<sup>(39)</sup>

### محاولات التصدي للأخطاء اللغوية

تعتبر ظاهرة اللحن ظاهرة قديمة قدم اللغة نفسها، وقد تصدى لهذه المهمة العلماء على مر العصور وتعاقب الأجيال عن طريق المؤلفات تارة وعن طريق التصويبات الشفوية تارة أخرى، ومن المؤلفات في ذلك ما يلي: لحن العامة للكسائي أبي علي بن حمزة (ت191هـ)، لحن العامة لأبي حاتم السجستاني (ت255هـ)، لحن العامة لأبي بكر محمد بن الحسين الزبيدي (ت379هـ)، التكملة فيما تلحن فيه العامة لأبي منصور الجوالقي (ت465هـ) درة الغواص في أوهام الخواص لأبي القاسم الحريري (ت516هـ)، لحن العامة لابن هشام اللخمي (ت600هـ)، التذليل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل للبشبيشي (ت820هـ)، لحن العامة لأبي الفرج بن الجوزي (ت958هـ)، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل (ت1069هـ)..."<sup>31</sup>، وغيرها من المؤلفات إلى يومنا هذا، ورغم كل محاولات التصويب هذه إلا أنّ الوضع باق على حاله ، بل يزداد سوءاً في هذا الزمن الذي كثرت فيه وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، فتسمع يوميا مئات الأخطاء وتقرأ العربية مكتوبة بالفرنسية في الجرائد وفي وسائل التواصل الاجتماعي، ودخلت إلى الكتب التعليمية والمناهج الدراسية، وصارت متداولة بكثرة على ألسنة الكثير من المعلمين والمعلمات من التحضيري إلى الجامعة.

وقد شاع بين الأساتذة والمعلمين -قديماً وحديثاً - تخطئة كل من يخرج عن المستوى الأفصح من اللغة بحجة أنّ العرب لم تقله أو لا يوجد في القواميس والمعاجم العربية، فما مدى صحة هذا الحكم؟

كلام العرب ينقسم إلى فصيح وأفصح، فالفصح من العبارات قبل كل شيء هو ما ثبت في لغة هؤلاء الناطقين عن طريق الاستعمال أو القياس، والأفصح هو ما كان أكثر استعمالاً

**كيف يمكن استثمار آراء الحاج صالح في إصلاح العملية التعليمية؟** تحدّث الدكتور الحاج صالح عن العملية التعليمية في الجزائر في عدة مواضع من مؤلفاته، شخّص فيه واقع التعليم وما يعانيه المتعلمون من صعوبات ومشاكل، وطرح عدّة أفكار كان يراها كفيلة لإصلاح العملية التعليمية، ومن هذه المقترحات ما يلي:

**تعليمية الأصوات:** تعليم الأصوات بطرق علمية حديثة محطة مهمة في تعليمية اللغات، فهو يساعد في كيفية النطق الصحيحة للحروف والكلمات، وبه تُصحح أخطاء الأداء الصوتي، كما يعمل على تشخيص صعوبات النطق عند المتعلمين ومحاولة إيجاد حلول لها، ورغم أهميته البالغة إلا أنّ واقع تعليمية اللغة في الجزائر لا يعبره اهتماما كبيرا حيث نجد الكثير من المتعلمين في المراحل الأولى من التعليم يعانون من صعوبة نطق بعض الأصوات أو ينطقونها خطأ كنطق الجيم شين أو العين همزة أو الذال ضاء وغيرها، وللتخلص من هذه المشاكل أوصى الحاج صالح بأن يُدرج في المناهج التعليمية "الأداء الصوتي كدرس مستقل ويعتمد في ذلك على الأوصاف العلمية لمخارج الحروف، والظواهر الصوتية العربية عامة كالوقف والإدغام وغيرها، وكذا على الأداء للنص القرآني في الكتب القديمة التي ظهرت في العصور الأولى" (49) كما يجب على المعلم أن يُنبّه المتعلمين أنّ تخفيف الهمزة وإخفاء الحركات وإدغام المتقاربين فصيح أيضا، وقد سُمعت هذه الظواهر الصوتية في محاضرات العرب العفوية وقرئ بها القرآن، ولا يزال يُقرأ بها في الكثير من القراءات القرآنية.

**مشكلة التعبير:** يعاني المتعلمون في كل المراحل التعليمية من مشكلة التعبير الشفهي والكتابي والسؤال الذي يمكن أن يُطرح هنا هو: لماذا يتحدّث التلاميذ بطلاقة ويسترسلون في الحديث خارج حجرة الدرس ويتمكنون من التعبير عما يعجزون عنه بالفصحى؟ أثبتت الملاحظات الميدانية والمراقبة اليومية للمتعليمين أنهم يتحدّثون بطلاقة وأريحية تامة عن كل ما يشعرون به ويصفون الظروف التي يعيشون فيها، والأحداث التي شاهدوها أو وقعت لهم، وهذه حالة طبيعية جداً "لأن المنطوق المتبادل بين اثنين على الأقل يقتضي أن يلجأ إلى جانب من الاستعمال اللغوي يتصف بالخفة والاقتصاد أي شيء كبير من العفوية، ولا سبيل إلى العثور عليه في العربية التي يتعلمها الناس في المدرسة" (50). ولا يقتصر هذا الأمر على المتعلمين فقط بل يشمل جميع شرائح المجتمع كباراً وصغاراً، ويحبّذ السياسة وأهل الاقتصاد والإعلام وغيرهم "والذي منع الناس من المشطّين في الإعلام من تجنّب الفصحى الملقّنة بالمدرسة هو عدم توفر الفصحى التي تعلموها على ما تتصف في لغة التخاطب العادي من الخفة في الأداء ومن الصبغ والتراكيب المأنوسة، فيلجأون إلى العامية ويخلطون بينها وبين الفصحى، ويميلون أحيانا كثيرة وبكيفية عفوية إلى الاختلاس والاختزال كما كان ذلك موجوداً في الفصحى العفوية، فكان لجوءهم إلى العامية أو هذا المزيج يريحهم من

حتى تصبح أصغر وأخف وأسهل استعمالاً، ومنه نقل من الجهد الذي كنا نبذله سابقاً مع الحفاظ على الوظيفة نفسها التي كانت تؤديها قبل أن يطرأ عليها التعديل والتحسين.

والهدف الثاني: هو أن هذه الوسيلة ستكون أقرب الأدوات إلى يد النجار، لأن المسافة من يد النجار ترتبط ارتباطاً عكسياً بتكرار الأدوات على حسب الحاجة، فالأداة التي يقل استعمالها يكون مكانها أبعد من الأداة الكثيرة الاستعمال بالنسبة إلى يده.

وهنا يظهر أن النجار سيميل بشكل كبير إلى استعمال تلك الأداة التي تكون أقرب إليه ما دام جهد الوصول إليها هو الجزء المستهلك من طاقة مجمل جهد الاستعمال، واستعمال أدوات مختلفة، ومتعددة وفقاً لمبدأ الجهد الأقل يراعي الجهد المبذول عند استخدام أداة معينة.

فتحريكها من مكانها على طاولة العمل إلى يد النجار، وإرجاعها إلى مكانها يستغرق وقتاً، ويحتاج إلى جهد يتوافق ووزنها، فالجهد (ج) إذن يساوي حاصل كتلة (ك) الأداة مضروباً في المسافة بين مكان الأداة على الطاولة ويد النجار (م) وإذا كانت "ت" هي معدل تكرار استعمال أداة معينة في أثناء فترة زمنية محددة للقياس "ز"، ومنه فإن مجمل جهد استعمال هذه الأداة لتلك المدة الزمنية (ج ز) يكون مساوياً لحاصل (ت) و(ك) و(م) الخاصة بها، وهذا ما يسميه "زيف" بمعادلة الترتيب الصغرى "أي ج م × ك × ج ز = ت

م لكل واحدة (ع) عدد الأدوات، يجب أن يقلل إلى الحد (46) × ك × و لتحقيق مبدأ الجهد الأقل؛

فحذف الكلام المعلوم لدى السامع، وتخفيف الهمز وإدغام بعض الحروف وإخفاء الحركات والتقديم والتأخير وكثرة الإضمار، وغيرها تجعل المتعلم يقبل على تعلم اللغة بكل يسر لأنها قريبة أو مشابهة تماماً لما يتحدث به يومياً في محاضباته، والمتكلم "يحاول أن يقلل من التعقيد البنيوي السطحي للمنطوق بينما يحاول رفع مقدار المعلومات التي يوصلها للمستمع للحد الأقصى، فالإتصال بفاعلية أمر يشغل المتكلم على نحو واضح، بينما لا يرهق نفسه من دون ضرورة في العملية" (47)

من أجل ذلك أوصى الحاج صالح بالألا ندع لغتنا تنحصر في الاستعمال الانقباضي الذي لا يغطي جميع أحوال الخطاب فلا بد من إحياء التعبير الفصيح غير المتكلف فتدخل بذلك العربية في جميع الميادين النابضة بالحياة، وحتى يتم إعادة المستوى الاسترسالي للفصحى ينبغي "الرجوع إلى المراجع اللغوية التي وصف فيها العلماء هذه العربية الفصحى العفوية وبصفة خاصة التأديبة الصوتية ومخارج الحروف وأحوال الوقف والابتداء، وكل ما يجوز تخفيفه في سعة الكلام والاختصار كما يقول سيبويه، ثم يقوم فريق من العلماء بدراسة هذه الأشياء وتصنيفها وتحديدها والتمثيل لها قصد إدراجها في مناهج التعليم والكتب المدرسية" (48).

أثناء العملية التعليمية، أو خلال التواصل مع غيره، وقد حمل الحاج صالح مُعدّي مناهج التعليم المسؤولية في هذا فقال: "فعلى المبرمج لمناهج التعليم العام أن يطلع على احتياجات الناشئة المختلفة من خلال التحريات العلمية التي تجري في عين المكان وذلك من خلال كتابات الأطفال العفوية وتسجيل كلامهم العفوي وخطاباتهم في المدرسة وفي البيت وفي الملاعب وغيرها، وفي جميع الأحوال الخطابية العادية الطبيعية، فبعد معرفته لكل ذلك فسوف يمدّهم بما يحتاجونه من ألفاظ وعبارات وتراكيب" (55).

وقد لاحظ الدكتور الحاج صالح أن هناك اختلالاً في كمية الرصيد اللغوي الذي يُقدّم للمتعلمين، و المادة اللغوية المقدمة للتلاميذ تتصف بهاتين الصفتين: 1- غزارة المادة اللغوية وكثرة المفردات التي لا يحتاج إليها الطفل ليوافق الحياة ككثرة الألفاظ الدالّة على نفس المسمى في الكتاب الواحد 2- خصاصة فظيعة فيما يخص الألفاظ التي تدل على المسميات المحدثّة في عصرنا الحاضر كالكثير من أسماء الملابس والأدوات وأجزائها والمرافق وغيرها" (56).

ولعالجة هذه المشكلة لابدّ من إعطاء المتعلم الكم المفرداتي والتركيبي الفصيح الذي يحتاجه في التخاطب اليومي من ناحية، ومن ناحية أخرى للتعبير عن المفاهيم الحضارية والعلمية الأساسية التي يجب أن يتعلمها في هذه المرحلة، ومحاولة خلق مواقف حيّة لتوظيف هذه المكتسبات اللغوية من أجل ترسيخها في الذاكرة، واستثمارها في مقامات ومواقف أخرى كاستخدامها في الإجابة عن سؤال أو إقامة حوار أو التعبير عن رأي حول قضية ما، لأنّ "التعليم الذي يعتمد على التلقين الموسوعي للمعلومات، ويهمل الاهتمام بخلق مواقف حيّة لتطبيقها يكون عرضة للنسيان السريع ويتلاشى أثره بعد مرور مدة وجيزة" (57).

**ضرورة التمييز بين النحو العلمي والنحو التعليمي:** لابد من التمييز بين النحو العلمي والنحو التعليمي والبلاغة من حيث هي نظرية ومن حيث هي تأديّة لأنّ الهدف من التعليم هو "إكساب المتعلم القدرة العملية لا النظرية على استعمال اللسان، وليس أن نجعل منه عالماً متخصصاً في علوم اللسان... وعلى هذا فالنحو كهيكّل للغة - وهو بذلك صورتها وبنيتها- شيء والنظرية البنوية للعربية التي هي علم النحو شيء آخر، وكذلك هو الأمر بالنسبة للبلاغة فهي تقابل النحو في أنّها كيفية استعمال المتكلم للغة والنحو فيما هو مخير فيه لتأديّة غرض معيّن فهي بهذا امتداد للنحو ولها مثله قواعد وسنن معروفة... واكتساب اللغة هو اكتساب مهارة معينة وهي مهارة التصرف في البنى اللغوية بما يقتضيه حال الخطاب وليس إكساباً لعلم النحو أو علم البلاغة... والعمل الاكتسابي للغة يكاد يكون تمرساً ورياضة مستمرة: كلما زادت وتواصلت زاد النمو اللغوي وقويت الملكة" (58).

**الابتعاد عن التلقين في التعليم:** اعتمدت طرائق التدريس منذ الاستقلال على تلقين المعلومات والمعارف للمتعلمين، ورغم أنّ المتعلم هو محور العملية التعليمية إلاّ أنّه لم يكن طرفاً في صنع المعرفة أو اكتشافها، فجاءت طريقة المقاربة بالكفاءات لتجعل منه عنصراً فاعلاً ومهماً، فبعد أن كان متلقياً للعلوم والمعارف فقط أصبح مشاركاً في اكتسابها، ففي هذه الطريقة يتم إقحام المتعلم في أنشطة ذات معنى بالنسبة إليه، منها على سبيل المثال "إنجاز المشاريع وحل المشكلات، إلاّ أنّ واقع التعليم في ظل هذه المقاربة يبيّن أنّ التلقين لا يزال يستخدم في اكتساب الملكة اللغوية، وهو أمر غير كاف ما لم يتم مراعاة متطلبات المقام، ونظم الكلام وفق ما يحتاجه المتحدث من تخفيف أو حذف، أو إعادة وتكرار، قال الحاج صالح: "إنّ اللغة إذا صارت تُكتسب الملكة فيها بالتلقين وإذا اقتصر هذا التلقين على صحة التعبير وجماله فقط - أو ما يبدو أنه كذلك - واستهان بما يتطلبه الخطاب اليومي من خفة واقتصاد في التعبير وابتدال واسع للألفاظ تقلّصت رقة استعمالها، وصارت لغة أدبية محضّة، وعجزت حينئذ أن تُعبّر عمّا تعبر عنه لغة التخاطب الحقيقية سواء كانت عامية أم لغة أجنبية" (54).

وقال أيضاً: "فقد صارت العربية تُكتسب بالتلقين والتلقين من عاداته أن يُهمل الخفيف من الأداء لأنّه يريد صاحبه أن تُعطى لعناصر اللغة حقّها أي أن تُحقق مخارج الحروف وأن تُبيّن إلى حدّ المبالغة أحياناً "حركات الإعراب التي سقطت من العامية فابتعدت الفصحى في مستواها التخاطبي عن الأداء العفوي إذ حافظت العامية على الخفة لأنّها لغة تخاطب فقط" (53).

**لماذا نعلم اللغة؟** يجب على المعلمين أن يفهموا بأن الهدف من تعليم اللغة هو التبليغ والاتصال وتلك هي الوظيفة الأساسية للغة أي تعليم طرائق وكيفيات توظيف اللغة من أجل تيسير الاتصال، وليس تعليم اللغة من أجل اللغة، قال الحاج صالح: "تعلم اللغة لابد أن يستجيب لما سيحتاج إليه المتعلم للتعبير عن كل ما يختلج نفسه وما يدور في ذهنه وما يُكنه من غرض، فاللغة وُضعت للتبليغ والاتصال قبل كل شيء، فإذا لم يفهم ذلك المعلم وقصد تعليم الأساليب التي يجدها في النصوص في ذاتها ولنفسها، أي كنماذج للأساليب الجميلة دون مراعاة الاحتياجات التعبيرية الحقيقية التي يشعر بها المتكلم عند استعماله الفعلي للغة في مختلف الأحوال الخطابية التي تثيرها الحياة اليومية فإنّه يكون بذلك أخطأ الغرض الأساس بل جمّد بذلك استعمال اللغة العربية وقصره على الجانب الجمالي ليس غير" (54).

**القاموس اللغوي الوظيفي:** إذا كان ينبغي الاهتمام بالمادة العلمية التي تُقدّم للمتعلمين والكيفية التي تُقدّم بها ينبغي الاهتمام أيضاً بالمتعلم ومعرفة احتياجاته الحقيقية على اختلاف المراحل العمرية، ويتم ذلك عن طريق ملاحظة الرصيد المفرداتي الذي يكسبه المتعلم والصعوبات التي تواجهه

## خاتمة

- 20- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تج. أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، المجلد 3، ط.3، ص.102.
- 21- ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين، لأبي البركات بن الأنباري (ت566هـ) تحقيق ودراسة الدكتور جودة مبروك محمد مبروك، راجعه الدكتور رمضان عبد التواب، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة ط.1، (2002م)، ص.424، وينظر: المقتضب للمبرد 3/ 167، تج. محمد عبد الخالق عزيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، (1392هـ/ 1972م).
- 22- الكتاب، لسبويه، ج.1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط.1، 1999م، ص.338، 314.
- 23- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، (1411هـ، 1991م)، ص.376.
- 24- التطور اللغوي مظاهره وعلمه وقوانينه، د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط.3، 1997م، ص.135.
- 25- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، 2003م، ج.3، مادة شوف .
- 26- ينظر: التطور اللغوي، ص.136.
- \* ينظر: دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة د. كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط.2، ص.42.
- 27- ينظر: التطور اللغوي، رمضان عبد التواب، ص.137.
- 28- الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، فخر الدين قباوة، ط.1، 2001م، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، ص.159.
- 29- ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، د. عبد الرحمن الحاج صالح المؤسسة الوطنية للعلوم الطبيعية، وحدة الرعاية، الجزائر، 2007م، ج.1، ص.78.
- 30- القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية - منهج لساني معاصر، د/ سمير شريف استيتية، عالم الكتب الحديث (2005م)، ص: 210، 211.
- 31- القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية ص: 211.
- ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، د. عبد الرحمن الحاج صالح، ج.1، ص.78.
- لسان العرب، ابن منظور، ج.12، ص.113، مادة قصد.
- 32 Dictionnaire de didactique des langues R/ galisson et D/eost p/174.
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج.1، ص.68.
- الندوة الدولية حول مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية، اللغة العربية وتحديات العصر في البحث اللغوي وترقية اللغات، عبد الرحمن الحاج صالح، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2001م، ص.31.
- مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني، تر. سعدي زبير، دار الأفق، 1999م، ص.51.
- \* أبو العيلاء: العلامة الإخباري محمد بن القاسم بن خلاد البصري الضريير النديم، ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة، أخذ عن أبي عبيدة وأبي زيد وأبي عاصم النبيل، والأصمعي، أضرب له أربعون سنة (ت283هـ)، سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، 2001م/1422هـ، ج.13، ص.309.
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج.1، ص.77.
- النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقر الإمام نافع للعلامة الشيخ سيدي إبراهيم المارغني، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، (1415هـ- 1995م)، ص.51-52.
- الكتاب لسبويه، ج.4، ص.29.
- النجوم الطوالع على الدرر اللوامع، ص.56.
- الكتاب ج.4، ص.29.
- الكتاب، ج.4، ص.26.
- الكتاب، ج.4، ص.27.
- الكتاب، ج.4، ص.25.

تبين من هذه الورقة البحثية أن هناك مستويين من التعبير في اللغة العربية الفصحى، مستوى عضوي استرسالي سُمع عن فصحاء العرب أنهم كانوا يوظفونه في خطاباتهم العفوية وفي حياتهم اليومية فكانوا يختزلون ويحذفون ويدغمون ويختلسون ويضمرون الكثير من الكلام في مقامات الأُنس، وكانوا يُحَقِّقون ويُتَمون في مقامات أخرى، وقد سمى الحاج صالح المستوى الأول بمستوى التعبير العضوي الاسترسالي، والمستوى الثاني مستوى التعبير الإجلالي، وقد أوصى عدّة مرّات أن من أفضل السبل للتغلب على اللهجات العامية واللغات الأجنبية التي فرضت نفسها في الواقع التداولي كبديل عن اللغة الفصحى هو العودة إلى المستوى العفوي الفصيح الذي يتميز بالخفة والاقتصاد .

## الهوامش

- 1- المستويات اللغوية في التحليل اللساني، أ.د عبد الحميد النوري، مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، سبتمبر 2016م، ص.01.
- 2 - ينظر: من وظائف الصوت اللغوي، د. أحمد كشك، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2008م، ص.11.
- 3- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، 2003م مادة جمل ج.3.
- 4- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، موقف للنشر، الجزائر، 2007م، ج.1، ص.177.
- 5- آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1997م، ج.4، ص.222.
- 6- مختار الصحاح، زين الدين بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت666هـ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط.1421هـ/2001م، مادة رسل، ص.222.
- 7- لسان العرب لابن منظور، ج.6، مادة رسل .
- 8- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، د. عبد الرحمن الحاج صالح المؤسسة الوطنية للعلوم الطبيعية، موقف للنشر الجزائر، 2007م ج.1، ص.177 .
- 9- اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت616هـ) تحقيق: غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق، ط.1، (1995م)، ج.2، ص.469، والمفصل في صنعة الإعراب أبو القاسم بن عمر الزمخشري، (ت538هـ) تحقيق د. عليّ أبو ملح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط.1، (1993م)، ج.1، ص.545.
- 10- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح، موقف للنشر، الجزائر، 2012م، ج.1، ص.64.
- 11- شرح طيبة النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ص.54
- 12- لحن العامة، د/ عبد العزيز مطر، طبعة دار المعارف (1981م)، ص.245.
- 13- في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، د/ مهدي المخزومي، مطبعة مصطفى الحلبي، ط.1 (1966) ص.04.
- 14- أصول تراثية في علم اللغة، د/ كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط.2، (1985م)، ص.191.
- 15- الكتاب، لسبويه، تج. عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت (1983م)، ط.3، ج.4، ص.477.
- 16- يوسف: 45 .
- 17- الكتاب، ج.4، ص.469.
- 18- سر صناعة الإعراب، ابن جني، تج: مصطفى السقا وملائه القاهرة، (1954م) ج.1/190.

- 33- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1418هـ/1998م، ج1، ص201.
- أدب الكاتب لابن قتيبة، تج. محمد الفاضلي، دار الجبل، بيروت، لبنان، 2001م، ص313.
- أدب الكاتب، ص46.
- أدب الكاتب، ص202.
- التقريب لأصول التعريب، الشيخ طاهر صالح الجزائري، المطبعة السلفية، ص03، وما اتفق لفظه واختلف معناه، أبو العميثل الأعرابي، ص80.
- ما اتفق لفظه واختلف معناه، أبو العميثل، تج. د. محمد عبد القادر أحمد، ط1، (1988م/1408هـ)، مكتبة النهضة المصرية، ينظر الصفحات من78 إلى84.
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، د/ عبد الرحمن الحاج صالح، ص76/77.
- 39- ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، د/ عبد الرحمن الحاج صالح، ص72.
- ينظر: اللهجة العربية العامية، عيسى إسكندر الملوغ، مجلة مجمع اللغة العربية بمصر، ج1، الصفحات من350 إلى368.
- الخصائص لابن جني، تج. محمد علي النجار، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م، ج2، صص.12-13.
- 36- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، د. عبد الرحمن الحاج صالح، ج1 ص75.
- \*جورج كينغسلي زبيف عالم لغوي ألف كتاب سلوك الإنسان ومبدأ أقل جهد: مقدمة لعلم البيئة البشرية، نشر لأول مرة عام 1949، وقال إن توزيع استخدام الكلمة كان من المقرر أن يميل إلى التواصل بكفاءة مع أقل جهد وتعرف هذه النظرية باسم قانون زبيف، ومارتيني هو لساني فرنسي أحد أقطاب المدرسة الوظيفية من أهم مؤلفاته: مبادئ في اللسانيات العامة، اللغة والوظيفة.
- 44 - اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، ترجمة: أحمد عوض، عالم المعرفة الكويت 2000م، ص: 323.
- اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، ص: 296.
- 46- اللغة والاقتصاد فلوريان كولماس، ص: 299.
- 47- اللغة والاقتصاد فلوريان كولماس، ص: 290.
- 48- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، د. عبد الرحمن الحاج صالح، ج1، ص179/178.
- 49- المصدر نفسه، ج1، ص188.
- 50- بحوث ودراسات ج2، ص103.
- 51- بحوث ودراسات ج2، ص104/105.
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص74.
- 53- المرجع نفسه، ج2، ص104.
- 54- المرجع نفسه ج1، ص179.
- 55- المرجع نفسه ج1، ص185.
- 56- المرجع نفسه، ج1، ص180.
- 57- تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها، د/المصطفى بن عبد الله بوشوك، الهلال العربية للطباعة والنشر الرباط، ط1، 1415هـ/2، 1994م، ص261.
- 58- بحوث ودراسات ج2، ص186/182.

#### المصادر والمراجع

- 1- اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت 616هـ) تحقيق: غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق، ط1، (1995م)، ج2.
- 2- المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم بن عمر الزمخشري، (ت 538هـ) تحقيق: د. علياب أبو ملح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، (1993م)، ج1.
- 3- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تج: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطباعة